عرفات رجل الأقدار ورمز شعب

عبدالحليم سيف

«منتصب القامة أمشي مرفوع الهامة أمشي.. في كفي قطفة زيتون وعلى كتفي نعشي»..

هكذا عرفنا ياسر عرفات الرئيس الفلسطيني خلال الأربعين السنة المنصرمة بين رصاصة فتح الأولى مروراً بصموده الأسطوري في بيروت.. ثم في مبنى المقاطعة برام الله وحتى لحظة وفاته بعد صراع شجاع ومرير مع الموت خاضه الرجل بإيمان لمدة ١٣يوماً كانت مثيرة مشحونة بالقلق والتوتر.. تضاربت خلالها الأنباء والتكهنات حول مصير عرفات وأسباب مرضه..

حرَّم دم الفلسطينيين.. والوحدة الوطنية المفتاح الحقيقي لقيام الدولة المستقلة.

بعد «ملحمة بيروت» انطلق عرفات من صنعاء الى فلسطين...كيف؟

أطلق رصاصة هجوم السلام العادل.. فتراجع الاسرائيليون!!

الى أين يا أبوعمار؟!

كان هذا السؤال المكروب والحائر يخرج من أعماق النفس المجروحة عندما كان الرئيس الفلسطيني الراحل يبحر في عباب المياه على متن سفينة يونية/ في رحلة وصفها المحللون بأنها تشبه «رحلة أوديس الاغريقي» بعد صمود أسطوري دام ٨٨ يوماً في مواجهة الغزو الاسرائيلي البربري لبيروت ثم خروج المقاتلين الفلسطينيين معه من نابلس في ديسمبر ١٩٨٣م..

بالتأكيد لم يرد في خاطر أحد صباح ذلك اليوم الذي وصل فيه عرفات الى صنعاء ماالذي يقصده وهو يجيب على سؤال الصحافيين السالف الذكر بقوله:

نحو فلسطين إن شاء الله..

وحتى عندما صدرت صحف اليوم التالي تحمل عناوينها عبارة عرفات تلك.. لم يكن أحد يعرف وقتها أن القضية الفلسطينية آنذاك على وشك أن تبدأ مرحلة جديدة في تاريخها تصل الى المشهد الراهن، الذي عكس حقيقة أن ليس لرحيل عرفات من مثيل.. لأنه البطل الذي مثّل صلابة الحلم الفلسطيني.. في جسده توحدت مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة مع القدس والمثلث والجليل ومخيمات اللاجئين في لبنان وسوريا... وهو في حياته كما في مرضه وبعد وفاته.. السجل الحي ليوميات الحياة الفلسطينية.. ومسيرة الدم التي لم تنقطع يوماً منذ خمسين عاماً..

في أطول ثورة تحريرية يشهدها العالم في العصر الحديث...

عشية إعلان الاستقلال

جالت هذه الحقائق في خاطري وأنا- كغيري- أتابع اللحظات الحزينة والباكية كما نقلتها مباشرة الفضائيات لوداع رمز الشعب الفلسطيني الى مثواه الأخير- يوم الجمعة التاسع والعشرين من رمضان- في ساحة المقاطعة برام الله، وهو المكان الذي ظل فيه محاصراً من قبل جبروت قوات الاحتلال منذ ١٣ديسمبر ٢٠٠١م، عشية الذكرى الـ١٦لاعلانه- أي عرفات- في المنفى ميلاد الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس- يصادف اليوم- وهو الذي كان يتمنى أن يحقق حلمه الفلسطيني الأكبر قبل أن يرحل ليترك خطاً زمنياً فاصلاً بين حال وحال!!

إن أباعمار- مثّل شخصية استثنائية، آمن بقضية شعبه وأحب الوطن والأمة والسلام فغدا الشراع والأمل والمشعل الهادي للشعب الفلسطيني في كل الأزمات والأيام..

فالتفت حوله الجماهير بالتضحية بالروح وبالدم والجسد والعطاء الذي لاحدود له من أجل تحرير الوطن السليب.. واستعادة الحد الأدنى من الحقوق المغتصبة.. واقامة الدولة المستقلة على تراب وطن ارتوى بدم الشهداء ومأكثرهم..

عرفات في قلوب اليمنيين

ولكن.. قبل أن أشرع في تتبع خطوات عرفات «نحو وطنه فلسطين» وكيف حدث ماحدث.. لابد من التوقف أمام المعنى الكبير الذي عكسه تشييع العالم لرجل شجاع بحجم «أبوعمار» من باريس الى القاهرة وحتى رام الله.. مما يعني أن الفقيد الراحل احتل المكانة المتقدمة في قلوب الجميع.

كما أن ذلك الحشد الدولي الرسمي والشعبي في وداع الراحل الكبير، كان بمثابة استفتاء جديد لنهج عرفات.

وأبقى القضية الفلسطينية متألقة وحية في الضمير العالمي..

وهذا المعنى أكده فخامة الأخ الرئيس علي عبدالله صالح عندما قال في تصريحات صحافية بالأمس : لقد فجعنا برحيل-أبوعمار- هذا القائد العربي التاريخي والاستثنائي الذي واجه أعتى الخطوب والتحديات دون أن ينهزم أو يفرط في حقوق شعبه ووطنه بل انه وأمام تلك التحديات والخطوب كان يزداد صموداً وتشبثاً بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره..

وحينما يكثر الحديث وبحرارة عن عرفات فإننا في واقع الأمر نتحدث عن رجل سكن قلوب اليمنيين ويعرفه كل طفل ورجل وامرأة... أحب شعبها وقيادتها.. وكان يردد قبل ١٩٨٩م قوله الشهير «فلسطين الشطر الثالث» في اشارة الى شطري اليمن الشمالي والجنوبي سابقاً، وبعد اعادة الوحدة اليمنية عام ٩٠م قال: «صرنا الشطر الثاني»..

الى صنعاء

ونعود بالحديث الى ١٩٨٣م..

كانت صنعاء هي المحطة العربية الأولى التي يدخلها الرئيس عرفات بعد خروجه من بيروت.

استقبلته اليمن مع مقاتلي منظمة التحرير نهاية ديسمبر ١٩٨٣م بالحفاوة والترحيب.. فتحت صنعاء ذراعيها لتحتضن بحرارة رمز الشعب الفلسطيني.. خرج اليمنيون من مختلف الاعمار لاستقباله.. ولعلنا نذكر كيف كان اللقاء حاراً ومؤثراً... فرحب فخامة الأخ/الرئيس علي عبدالله صالح بأبي عمار ومرافقيه من أبناء الشعب الفلسطيني والثورة الفلسطينية في وطنهم اليمن مهد العروبة الأول وبين أهليهم واخوانهم وأكد الرئيس مجدداً خلال استقباله عرفات: «موقف اليمن المبدئي قيادة وحكومة وشعباً الى جانب نضال الشعب الفلسطيني في سبيل استعادة كامل حقوقه واقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني.. وأبدى حرصه على استقلالية القرار الفلسطيني..

وعبر أبوعمار عن شكره وتقديره لليمن قيادة وحكومة وشعباً.. ودورها القومي المسئول لحماية الشرعية الفلسطينية واشار الى أن الشعب الفلسطيني لن ينسى المواقف اليمنية النبيلة والصادقة والأخوية الى جانب الثورة الفلسطينية «راجع الثورة ٢٥-٢٨ ديسمبر ٨٣م»

موقف يمني لم ينسه عرفات

وكان أبوعمار قد ألقى كلمة في مهرجان صغير أقيم على ظهر السفينة في الحديدة جاء فيها:

«وأنا أصل مع اخواني المقاتلين الى أرض اليمن.. أرض الأجداد والبطولات.. وأنا بين اخوتي وأهلي في هذه اللحظات التاريخية والخطيرة مع هؤلاء المجاهدين الذين كانوا في شمال لبنان في مدينة طرابلس المسلمة.. وفي تلك الظروف الصعبة حيث كان الحصار والقصف لم ينقطع على مخيماتنا.. لا أنسى عندما كان يتصل بي أخي الرئيس علي عبدالله صالح باسم كل اليمنيين وكل اخوانهم الشرفاء من أبناء الأمة العربية... وكانت هذه الكلمات التي أسمعها منه بلسماً لكل المجاهدين ولكل المناضلين- فلسطينيين ولبنانيين...»

وأضاف أبوعمار موضحاً للقاصي والداني أسباب المعارك التي خاضها وفرضت عليه في لبنان فقال:

إننا لم نحارب في هذا الموقع دفاعاً عن الثورة الفلسطينية فقط ولا عن لبنان فقط... صحيح أننا حملنا لواء الدفاع عن قرارنا المستقل حتى لايعبث به العابثون وحتى يحاولوا أن يستغلوا ورقة رابحة في دائرة المساومات الدولية..

ولكن ليس هذا فقط.. لقد كنا ندافع في هذا الموقع عن الأمة العربية لأن المؤامرة لاتستهدف فلسطين ولا لبنان فحسب وانها مؤامرة تستهدف أمتنا العربية.. هذه المؤامرة هي مؤامرة التقسيم الطائفي ثم دفعها الى البلقنة ثم السيطرة عليها.. وحتى لاندخل العصر الاسرائيلي.. وحتى لاندخل عصر ملوك الطوائف كنا نقاتل ونجاهد في تلك الرقعة من الأرض.

من صنعاء الى القدس

وعندما سُئل في مؤتمر صحافي عقده آنذاك في صنعاء عن مرحلة مابعد طرابلس رد: «المسيرة الطويلة مستمرة حتى القدس» وأكد أن مرحلة جديدة من العمل الفلسطيني ستبدأ..

ورغم بُعد المسافات الجغرافية بين اليمن وفلسطين إلا أن عمق الارتباط بالثورة الفلسطينية لم يتزحزح كانت المسافة قريبة في وعي اليمنيين.. ووقفت القيادة السياسية اليمنية لدعم القضية الفلسطينية التي كانت تمر مع قائد منظمة التحرير في أقسى محنة بعد «ملحمة بيروت» فقد أصابت سهام الانشقاق «إخوة الوجع والمصير» في منظمة التحرير وفتح..

وامتد الانقسام الى المنظمات الشعبية والجماهيرية.. ولأول مرة منذ العام ١٩١٧م تتعرض مخيمات ومكاتب المنظمات الفلسطينية لهجوم مسلح بأيدي فلسطينية «فلسطين الثورة- ابريل ١٩٨٤م».

وفي ذلك الاطار-أيضاً- كانت الأخبار التي تنشرها بعض الصحف العربية والغربية في تلك الأيام من عام ١٩٨٤م تقول ان عرفات انتهى.. وانتهت معه كل المؤسسات الفلسطينية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير- المجلس الوطني- المجلس المركزي التي منها أجنحة مرتبطة به شخصياً..

وعلى عكس ما تمناه خصوم عرفات.. فقد انطلق الرجل من صنعاء يعمل في كل اتجاه..

فأعاد حرارة الحوار الوطني مع قيادة الفصائل التي تنطوي تحت مظلة المنظمة مثل «الجبهة الشعبية» و «الجبهة الديمقراطية» وغيرها، وخاض رفاقه في فتح مثل فاروق قدومي «أبواللطف» وخليل الوزير «أبوجهاد»، وصلاح خلف «أبوإياد» حواراً ديمقراطياً وصريحاً مع بقية الفصائل الفلسطينية عقدت في صنعاء وعدن والجزائر خلال عام ١٩٨٤م في حين احتضنت صنعاء في ابريل من نفس العام المؤتمر العام لاتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين..

وحرص أبوعمار في تلك الظروف العصيبة والخطيرة على اعادة ترتيب البيت الفلسطيني على قاعدة الوحدة الوطنية.. ووقف في مهرجان تأبين الشاعر الكبير معين بيسو في تونس ليشدد على أهمية تصليب الوحدة الوطنية التي لامناص من الالتزام بها لمواجهة الجيش الاسرائيلي الذي يتربص بالجميع وراغب في إبادة الجميع «مجلة فلسطين الثورة:٢٨/٤/١٩٨٤م»

شعبية أبوعمار

وقبل ذلك لم ينقطع تواصل أبوعمار أو الختيار- كما يحلو لرجاله وصفه، مع شعبه في الأراضي المحتلة ومخيمات الشتات لحظة واحدة.. لأنه كان يؤمن حتى النخاع بعظمة الشعب الفلسطيني الذي يقاوم العنف الاسرائيلي «جباراً» بعنفوان الجماهير الحية التي قال عنها القرآن الكريم «إن فيها قوم جبارين» وهذا ماكان عرفات يكرره في حكاياته..

وفي الذكرى الـ ١٩ لانطلاقة الثورة الفلسطينية قال عرفات في رسالة نشرتها مجلة فلسطين الثورة في ١٩٨٤/١/٧م: في كثير من الأمم وخاصة في عالمنا الثالث تكون القيادات